المحاضرة العاشرة: ضد المنهج (باولفيرابند)

في الحقيقة أن المتأمل في صيرورة الثقافة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، يلاحظ تثمين وتقدير مبالغ فيه للمعرفة العلمية، وللنموذج المعرفي التقني الذي تغلغل في أدق تفاصيل الحياة الإنسانية، حتى لم يعد شيء ينفلت من قبضة الآلية العلمية، بل استحال نتاج المقياس العلمي عند البعض هو عين الوجود، وما لم يحتمله المقياس فهو عندهم غير موجود أصلا. وضد هذه الهيمنة الملحوظة، أخذ الفكر الناقد للمنظور العلمي يبرز، خاصة في حقلي الأبحاث الفلسفية والدينية،غير أن نقد العلم لم ينحصر في أبحاث خارجة عن حقله، بل نجد نقدا إبستمولوجيا يصدر من داخل الحقل العلمي ذاته، نقدا للآراء التي جعلت من العلم المنظور الوحيد لفهم العالم وتأويله. وقد برز هذا النقد عند إبستمولوجييناًمثال كارل بوبر، ولاكاتوس، وباولفيراباند وآخرين. غير أن هذا الأخير كان أكثر جذرية وثورية في نقده، بل لم يخل في مواقفه من مبالغة في التقليل من شأن المعرفة العلمية، والمناداة برؤى موغلة في الطرافة، مثل تسويته في التقييم بين السحر والشعوذة وبين المعرفة العلمية.

أولا: نقد العلم عند باولفيرابند

يشير باولفيراباند(1924 ـ 1994) في كثير من أبحاثه، إلى ضرورة إنجاز الفصل بين العلم والدولة، على نحو يشبه في ثقله الفصل الذي حدث بين الكنيسة والدولة في التاريخ الأوروبي، حيث يؤكد وجوب تحرير المجتمع مما يسميه بالسلطة الاستبدادية للعلم. ويرى أن من بين شروط هذا التحرير الفصل بين الدولة والنشاط العلمي. يقول في معرض نقده للمؤسسة التعليمية الأميركية: " غير مسموح للأميركي اليوم بأن يطالب بأن يتعلم أطفاله في المدرسة السحر بدل العلم، حيث هناك فصل بين الكنيسة والدولة، لكن ليس هناك فصل بين الدولة والعلم".

يجب على الدولة حسب فيراباند أن تتخذ موقف الحياد وإلا سقطت في الأدلجة والاستبداد، فلا ينبغي لها أن تتبنى العلم أو غيره من أشكال المعرفة وأنماطها، بل يجب أن تترك الحقل التعليمي والثقافي حرا تتنافس فيه النظريات وأنماط المعارف بشكل حر. إذ يقول في كتابه:(ضد المنهج): "

إن العلم هو أحد أشكال المعرفة التي طورها الإنسان، لكنه ليس بالضرورة أرقاها". فليس للمعرفة العلمية أي مسوغ، لا من جهة المنهج ولا من جهة النتاج المعرفي، يسمح لها بتوكيد زعمها بتفوقها على غيرها من أنماط التفكير والمعرفة. بل يذهب في نقده للاكاتوس أبعد من ذلك، حين ينفي أي إمكانية للزعم بأفضلية العلوم على السحر، بل يضيف في دراسته:(كيف ندافع عن المجتمع ضد العلم ؟): " إن علم الطب مدين للمشعوذات".

وللتأكيد على موقفه يشير فيرابند في نقده للعلماء والإبستمولوجيين إلى أنهم في حكمهم بأفضلية العلم على غيره من أنماط المعرفة الإنسانية، كنمط المعرفة الدينية مثلا، يكشفون عن جهلهم بتلك الأنماط وقلة معرفتهم وإدراكهم لها، وهو جهل يؤكد أن ما يتأسس عليه من أحكام معيارية هو أحكام مهزوزة لا تستند على أساس غير الأساس الفارغ القائم على مجرد الانبهار بالعلم ذاته.

والعلم بالنسبة لفيرابند هو مجرد تقليد من مجموعة تقاليد أخرى، وجهات نظر أخرى تريد أن تفهم هذا العالم وتتفاعل معه، لا هو أعلى ولا أقل منهم، ولا سلطة لديه للتحكم فيهم والحكم عليهم، ويضيف أن المجتمع الحر لا يمكن أن يقوم عن طريق عقلانية علمية، نظرية علمية، برنامج بحث واحد، ولكن بتعدد المنهجيات وبالتعاون بين كل الطرائق لتحصيل المعرفة بين كل الحضارات يتم التأسيس للمجتمع الحر.

وتتسع نظرة فيرابند لتشمل ما قدمه الغرب على أنه خلاص العالم وطريقه نحو الحقيقة، وبذلك يعد من الفلاسفة الغربيين الذين قدموا نقدا لاذعا للحضارة الغربية، متهما إياها بأنها تصنع من العلم سلاحا للتسلط لإهمال أفكار الحضارات الأخرى، بدعوى أنها –عبر العلم ودون غيره– تعرف الحقيقة وتستطيع سبر أغوار الطبيعة وكشف أسرارها، تلك النقطة هي ما يُمركز المشروع الغربي الثقافي والحضاري حول العلم، لذلك يطالب فيرابند بالتعددية المنهجية، ويشير إلى أن الواقعية في التعامل تتطلب أن نستفيد من كل وجهة نظر ممكنة.

بذلكيعتبرفيرابندأنالمجتمعالغربيبينماهويدّعيالديمقراطية،فإنهيعتمدفقطعلىتقليدواحدوهوالعقلانيةالعلميةالتيتحكمعلىكلشيءآخر،وتصنفالأشياءمنحيثكونهاعلمية/عقلانيةأملا،ويمتدالأمربتلكالطريقةفيالنظرللعالمإلىوصمكلماهوغيرغربيبأنهمتخلفوغيرعلمي،وفيتلكالنقطةنصلإلىالهدفالرئيس –كمايرىفيرابند–

لمشروعالوحدةالثقافيةالغربي،فهوممارسةللهيمنةفقط،تبدوفيهاالثقافةالغربيةكنسقكونييلهثوراء الصوابويسبرأ غوارالكونولامجالواضحللتعدد،ولالأيةآراءأخربممكنة،هنايرى

فيرابندأنذلكهوالتهديدالأكثرخطراللديمقراطية،هذا ما جعل الدكتورخالدقطبأستاذفلسفةالعلمبجامعةالفيّوم بمصر:"

إنلسانحالفيرابنديقولإنالدعواتالمعاصرةالتيتتشدقبالعولمةوالكوكبيةوالعالميةهيأفكارإيديولوجيةمغرضة،تحاو لتثبيتدعائمثقافةما،وهيمنتهاعلىالساحةالفكريةوالثقافيةالعالميةباسمالعقلانيةالعلمية".

ثانيا: الفوضوية في العلم عند باولفيرابند

قدم فيلسوف العلم باولفيرابند فكرة الفوضوية المعرفية، والتي ترى عدم وجود قواعد منهجية مفيدة وبعيدة عن الاستثناء تحكم تقدم العلم أو نمو المعرفة، كما تعد فكرة أن العلم يمكن أو ينبغي أن يعمل وفقًا لقواعد عالمية ثابتة فكرة غير واقعية تضر بالعلم نفسه. ويدعو فيرابند إلى إقامة مجتمع ديمقراطي يتم فيه التعامل مع العلم بطريقة مساوية للإيديولوجيات الأخرى أو المؤسسات الاجتماعية بالإضافة إلى غيرها مثل الدين والتعليم أو السحر والأساطير، ويرى أن هيمنة العلم في المجتمع أمرًا فاشيًا وغير مبرر،وأن مشكلة وضع الحدود لتمييز العلم من العلوم الزائفة على أسس موضوعية ليست ممكنة، وبالتالي تعتبر هذه المشكلات مشكلات معضلة بالنسبة لمفهوم العلم وفقًا للقواعد العالمية الثابتة.

كذلك انتقد فيرابند العلم لعدم وجود دليل على مفاهيمه الفلسفية الخاصة. وخصوصًا فكرة توحيد القوانين وتوحيد العمليات من جهة الزمان والمكان، يقول فيرابند: "علينا أن ندرك أن النظرية الموحدة للعالم المادي غير موجودة ببساطة، فلدينا النظريات التي تعمل في المناطق المحظورة، ولدينا محاولات رسمية بحتة لتلخيصها في صيغة واحدة، ولدينا الكثير من الدعاوى التي لا أساس لها مثل الدعوى بأنه يمكن تحويل الكيمياء إلى الفيزياء، وقد تم التخلص من الظواهر التي لا تتفق مع الإطار المقبول، ففي علم الفيزياءوالتي يعتبرها كثير من العلماء العلم الأساسي الحقيقي، لدينا الآن على الأقل ثلاث وجهات نظر مختلفة ... دون وعد التوحيد الخيالي وليس فقط الرسمي"

وبعبارة أخرى العلم هو المصادرة على المطلوب عندما يُفترض أن هناك حقيقة عالمية لا يوجد عليها دليل.

ويعتبر كتاب باولفيرابند الأشهر: (نقض المنهج) موجز في النظرية الفوضوية للمعرفة، المنشور عام 1975 يؤسس فيه رؤيته لما يسميه الإبستمولوجيا الفوضوية.فالإبستمولوجيا هي فرع في الفلسفة يختص بأسئلة ونظريات المعرفة. و(فوضوية)فيرابندتعني أن كل المناهج المستخدمة في العلوم ذات مدى محدود، وبالتالي لا يوجد شيء يُدعى(المنهج العلمي)، فلو نظرنا إلى الكيفية التي تطورت وتقدمت من خلالها العلوم، وجدنا أن المنهج الوحيد الممكن رؤيته هو (أي شيء يصلح). و يؤكد فيرابند أن العلم لم يتقدم على أساس من القوانين الصارمة، وإنه إن حاولت فلسفة العلم إنزال قوانين صارمة لتحكم العلم، فلن يؤدي هذا سوى إلى تقييد التطور العلمي.

ويؤكد فيرابند على أنه من العبث أن نأمل في اختزال العلم إلى بعض القواعد المنهجية البسيطة، وذلك نظرا لتعقد تاريخه. فالفكرة القائلة في نظر فيرابند، بأن العلم يمكن وينبغي له أن ينتظم وفق قواعد ثابتة وشمولية، هي في آن واحد فكرة طوباوية وذات بريق خادع. وكل المناهج لها حدودها، والقاعدة الوحيدة التي تبقى وتحيا، هي «كل شيء جائز». هنا مكمن التصور الفوضوي الذي يعتنقه ويدعو إليه. وتعتبر النزعة النسبية من أهم تجلياته،ويستعمل مفهوم النسبية بدلالات مختلفة ومتباينة وأحيانا بطريقة عبثية، إلا أنه يتضح من خلال النظر في تطور العلوم والفنون والفلسفة، أن الغنى الفكري متلازم ومتناسب مع التعدد المذهبي، بحيث لا يمكن أن يتوفر التعدد إلا في جو ثقافي تتعايش فيه المذاهب والعقائد وتتلاقح بدرجة ما، من أجل الإبداع والابتكار. وهذه هي الخاصية الأساسية للعقلية العلمية. يقول فيرابند: " إن تنوع الآراء سمة ضرورية للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو كذلك المنهج الوحيد الذي يساير النظرة الإنسانية ".